الفصل التاسع

المظهـــر

إن الانتقال من الماهية ، بوصفها أساساً للوجود المشخص إلى المظهر، يتم على النحو التالى : إن الشيء قد انقسم الى نصفين : المادة والصورة ، ولكن كل نصف يضم النصف الآخر . ذلك أن المادة هى الوحدة مع الذات، المجردة. والصورة هى العلاقة مع الآخر ، ولكن الوحدة مع الذات او العلاقة مع الذات تحل محل العلاقة مع الآخر . وهذا يعنى أن الصورة تصبح المادة . وكذلك الأمر بالنسبة إلى المادة فإنها تصبح الصورة . وهذا يعنى ان الصورة هى الشيء كله. وان المادة هى الشيء كله .

ينتج من ذلك أن الشيء متناقض . فهو من جهة علاقة مع الذات أى مستقل عن كل ما عداه وهو من جهة أخرى علاقة مع الآخر . أى مرتبط بغيره. فإستقلال الشيء اذن ينفى ذاته . واذا نظر إلى الشيء بهذا الاعتبار سميناه بالمظهر .

ويجب أن نميز بين هذا المفهوم للمظهر وبين المفهوم الدارج . إذ يقال أحيانا إن العالم الحسى هو مظهر ، بمعنى أنه مجرد وهم ، ولكنه لا يضم أى تناقض ، اما المظهر فى فلسفة هيجل فهو مرتبط بمعنى التناقض . ذلك أن الشيء هو مستقل وغير مستقل فى وقت واحد . والنظرة الى العالم على انه مظهر يعنى أننا ننسب إليه تناقضا داخليا ومثال ذلك موقف زينون الايلى من الوجود الحسى .

وبما أن العلاقة مع الذات تشير إلى الماهية أو الوجود الباطن وان العلاقة مع الغير تشير إلى المظهر أو الوجود الظاهر . فإننا نستنتج أن الماهية والمظهر ليسا شيئين مختلفين بل هما شيء واحد . إن المظهر هو مظهر الماهية . ونحن هنا لا نقول بتعارض بين المظهر والواقع بحيث يشير المظهر إلى لا وجود وبحيث يشير الواقع إلى الوجود الحقيقى كما نجد ذلك فى الفلسفة الهندوية . فالمظهر

عند هيجل لا يقل أهمية ، لأن من طبيعة الماهية أن تبدو لنا كمظهر، بينما لا نستطيع أن نفهم كيف يعلن براهمان عن نفسه فى الفلسفة الهندوية ، لأن الماهية والمظهر فى هذه الفلسفة شيئان مستقلان متمايزان . أما عند هيجل فهما مترابطان وموحدان .

القسم الأول

عالم المظهر

إن الصورة بوصفها تشير إلى العلاقة مع الآخر تمثل الوجود الخارجى أو ظاهرية الشىء. فالصورة إذن تصبح المظهر ، والمادة بالمقابل تصبح الماهية . ولكننا رأينا أن الصورة تضم فى ذاتها المادة .

فالمادة إذن أو الماهية يمكن أن ينظر إليهاعلى أنها صورة أو جزء من الصورة . وبما ان الصورة ظاهرة فهى تجد أساسها فى ظاهرة أخرى وهكذا. وبذلك نكون بصدد كثرة من الظاهرات مترابطة فيها بينها . وجملة هذه الظاهرات تكوّن عالم المظهر . ويجب ان نشير إلى إننا لسنا هنا بصدد العالم المادى الذى لا يُستنبط إلا فى مرحلة لاحقة ، أى فى فلسفة الطبيعة، وانما نحن بصدد ظاهرية العالم أى بصدد مقولة يمكن أن تنطبق على الحوادث الحسية.

القسم الثاني

المضمون والشكل

إن الظاهرة تتألف من الصورة والمادة ولكن اعتبار المادة جزءا من الصورة واعتبار الصورة جزءا من المادة يجعلنا ننظر إلى المادة والصورة على أنهما يشكلان المضمون والشكل . ذلك انه على الرغم من التمايز بين المضمون والشكل فان كلا منهما هو الآخر فى جوهره . ونحن نجد فى الفن عامة مثلا واضحا على ذلك حين نميز فى القصيدة بين مضمونها وبين شكلها إلا أن هذا التمييز ليس كاملا لان شكل القصيدة هو الذى يعين مضمونها ، ولأن مضمون

القصيدة هو الذى يعين شكلها . فإذا تغير شكل القصيدة فان القصيدة كلها تتغير . ذلك ان شكل القصيدة ليس شيئا يفرض على المضمون من خارج . وانما لكل مضمون شكل يناسبه بحيث يتحد المضمون والشكل ويندمج الواحد فى الآخر .

والفرق بين المادة والصورة وبين المضمون والشكل هو أننا ننظر الى المادة على انها عديمة الصورة وللصورة على أنها عديمة المادة . فالعلاقة بينهما خارجية. وليس الأمر كذلك فى المضمون والشكل لأن كلا منهما يعين الآخر .

القسم الثالث

الإضافة أو التضايف

لقد وصلنا فى المضمون والشكل الى علاقة كل طرف منها هو عين الطرف الآخر . فالجانب الأول هو نفس الجانب الثانى منظورا إليه من زاوية مختلفة . والمقولات التى تتصف بهذه الصفة هى (١) مقولة الكل والاجزاء . و (٢) مقولة القوة وتجلياتها . و (٣) مقولة الداخل والخارج .

ودائرة هذه المقولات تسمى دائرة الاضافة أو التضايف مفهومة بمعنى اكثر عينية من المعنى الذى ورد سابقا عن العلاقة او الاضافة .

١ - الكل والأجزاء

إن حركة الجدل هنا شبيهة تماما بحركته التى رأيناها عندما تكلمنا عن الاختلاف واستنباط الكل والاجزاء شبيه باستنباط التنوع .. فالمرحلة الأولى للاختلاف كانت تشير الى اختلاف مباشر أى الى تنوع . والمرحلة الأولى للاضافة هنا تشير أيضا إلى اضافة مباشرة أى الى إضافة لا يتضمن فيها أحد الحدين الحد الآخر . إنها إضافة نقرر بصددها أمرين : (١) الحدان فيها متعادلات، (٢) كل حد فيها مستقل عن الآخر . وهذا ما ينطبق على الكل والاجزاء. فواضح أن الكل يساوى أجزاءه ، ولكن من الواضح أيضا أن هناك

استقلالا بين الكل والاجزاء فالزهرة الواحدة التى تؤلف جزءا من باقة ، يمكن أن ينظر إليها فى ذاتها أى بوصفها مستقلة عن الباقة ، لهذا نسمى هذه الاضافة بالاضافة الميكانيكية . ذلك أن العلاقة بين الكل والاجزاء ليست عضوية كما هو الحال بين الجسم الحى ، وبين عضو من أعضائه . فالزهرة يمكن أن تنفصل عن الباقة وتظل زهرة أما الذراع فلا يمكن ان تنفصل عن الجسم وتبقى ذراعا. وبهذا المعنى يقول هيجل عن العلاقة بين الكل والاجزاء إنها علاقة ميكانيكية وبالتالى مباشرة .

٢ - القوة وتجليات القوة

بما ا ن العلاقة مع الذات أو الوحدة تمثل جانب الماهية ، بينما تمثل العلاقة مع الآخر او الكثرة جانب المظهر ، والتجليات ، فإننا نستطيع أن نقول إننا هنا بصدد وحدة تتجلى فى كثرة . فلابد للوحدة من أن تكون لها تجليات، ولابد للتجليات نفسها من أن تعبر عن وحدة. هذا النوع من الاضافة هو الذى يتمثل فى القوة وتجليات القوة . مثال ذلك أن الحرارة تتجلى فى صور متعددة. وأن القدرة على الفعل عند الانسان تتجلى فى أفعال متعددة . إن القوة ليست شيئا آخر سوى تجلياتها . واذا زالت القوة زالت التجليات ، والعكس بالعكس.

ولذلك كان تفسير الظاهرة بالقوة مجرد تحصيل حاصل . إنه تفسير الشيء بنفسه . ولذلك أيضا كان من العبث ان نقول إننا نعرف تجليات القوة ولكننا لا نعرف القوة نفسها . ليس هناك وجود لقوة « فى ذاتها » . ولكن وجودها هو وجود تجلياتها .

٣ - الداخل والخارج

إن الاضافة بين القوة وبين تجلياتها تعنى أن القوة تمثل الهوية او الوحدة، وإن التجليات تمثل الاختلاف والكثرة ، ولكن اتحاد هذين الجانبين ينقلنا الى مفهوم الداخل والخارج . قد يجب الا نفهم هذه المقولة فهما مكانيا لأنها

تمثل العلاقة بين الماهية وبين المظهر . فطبع الانسان وعواطفه ودوافعه هى الداخل بينما أفعاله هى الخارج

ويلح هيجل على أن تجاهل وحدة الداخل والخارج يؤدى إلى ما لا نهاية له من الاخطاء التى يقع فيها الفهم . فاذا كان داخل الانسان هو عين خارجه فاننا نستطيع أن نقول إن الانسان هو ما يفعله . وان من الغرور أن يعتقد فرد من الناس بانه فى داخله أعمق منه فى خارجه . والعكس أيضا صحيح . إذ لا يجوز لنا أن نحكم على إفعال عظيمة وخيرّة بأنها ليست سوى الوجه الخارجى الذى يختلف عن الوجه الداخلى . فالإنسان يتحد دائما مع سلسلة افعاله .

obeikandl.com